البحث عن غـــد

للكاتب الانكليزي روم لاندو

للأستاذ علي حيدر الركابي

— ٥ —

الفجر في سورية

المجاهر

إن للسياسة أثراً بليغاً في تفكير السوريين لا يجاريها فيه شيء، فان سورية كلها تشكو من مرض واحد هو شدة الحيوية السياسية . وهي الحيوية التي ما زالت في الشرق الأدنى مطلقة لا تقيدها عوامل ضبط النفس أو الشعور بالمسئولية المدنية (Civic Conxionsness)

إنه لمن الصعب جداً معرفة الفروق الرئيسية التي تفصل الحزب الحاكم عن المعارضين الذين لا يسمح لهم بأن يمثلوا في مجلس النواب . ومع ذلك فان الطموح الشخصي وميل البعض إلى الشعوذة قد حملا كلا الفريقين على الاعتقاد بأن الفوارق بينهما عظيمة كما أن كل جهة راحت تتهم الأخرى بدواء الاثنان وتزعم أنها هي الممثلة الوحيدة للوطنية الحقة — وبهذا تقيم الأحزاب البرهان على أنها تحافظ على التقاليد الشرقية تمام المحافظة

ومن أعظم ما أدهشني في سورية الرغبة الشديدة عند رجال السياسة في الاعلان عن آرائهم . ومع أن البعض نبهني إلى أني لن أحظى من السوريين إلا بنصر بحات عامة وغامضة فقد وجدت السياسيين يندفعون في الحديث بعد مضي خمس دقائق أو عشر على بدء اجتماعي بهم ويصرحون بما يزيد على مطلوبي، فكان علمهم بأني رجل محايد لا أهتم بالسياسة كثيراً يدفعهم إلى الاعتراف أو الشرح أو الاتهام . وعلى كل حال فقد كان لهذه الاعترافات عندي أهمية كبرى من الناحية النفسية إذ أنها أطلعتني على بعض الأمور التي سيكون لها أثر فعال في حياة العرب السياسية في المستقبل وإن كانت هذه الأمور نفسها غير واضحة تماماً الآن

وقد وصلت الصراحة ببعض السياسيين إلى حد أنهم يلجئوا لي الوسائل التي يودون تسخيرها للنيل من سمعة الحزب المستولي على الحكم . وبالرغم من أن تهديداتهم كانت فارغة وأنها ربما لن تتجاوز حد الكلام إلا أنها كانت دليلا قاطعاً على فقدان روح المسئولية في الأسلوب السياسي المتبع . فالمعارضون يعتبرون القابضين على زمام الحكم في عداد الخونة، وهؤلاء يعتقدون أن الواجب يدعوهم إلى اتخاذ أي تدبير كان ما داموا يعتقدون فيه الصلاح . وعلى هذا فان كلا الفريقين يسير على غير بصيرة في طريق ينهى عنه العقل السليم ويجعل ادعاء كل منهما الاخلاص في العمل على نفع الأمة وزعمه أنه مستعد للموت في سبيلها كلاماً بلا معنى

لقد ظهر لي أثر العاطفة المتطرفة في السياسة بجلاء لما زرت أحد أعداء الحكومة وكان من قواد الثورة على الفرنسيين عام ١٩٢٥ . ولو لم يؤكد لي أشخاص مختلفون بأنه كان يقود الحملة تلو الأخرى ضد الفرنسيين لما صدقت قط أن هذا الرجل كان في يوم من الأيام مصدراً عظيماً لقلق القيادة العسكرية الفرنسية فقد استقبلني عند مازرته في ساعة متأخرة من الليل بجلباب من الحرير الأبيض الفاخر الموشى بخيوط حمراء وذهبية وكان يقطن (شقة) حديثة فخمة . وهو خريج جامعة ألمانية مشهورة ولكنه يتكلم الانكليزية بسهولة وعذوبة تتناسب مع سكناه في منزل جميل وارتدائه الحرير الأبيض لاستقبال الضيوف الأجانب

ذكرت لمضيفي بعض رجال الحكومة فانفجر واتهمهم بالخيانة

طرق تعليمها كما قال الأستاذ الامام محمد عبده

ولا أحدثكم بعد عن الفوائد التي تجنيها من إتقان اللغة العربية ودراسة القرآن ، فان الهداية والتقوى تكون ملازمة للعلم بأحكام الدين الملازمة ذكرها في آية واحدة أو آيتين متجاورتين ، ولا يغمرنا من الشعور ببلاغة القرآن وسلطانه على النفوس ، ثمرة ذوقنا اللغوي الذي نكتسبه من ممارسة اللغة . أما الفوارق المذهبية والشيع المختلفة فانه يقضى عليها باذن الله ، ويصبح المسلمون — كما كانوا — أمة واحدة يتعاونون على البر والتقوى . والله الموفق

« فلسطين » زاره حمدان

وسوء الائتمان، وعند ما سألته عن الوسيلة الناجعة لإزالة الفساد المتأصل من حياة سورية السياسية أجاب على الفور وبلا تردد :

— « يجب أن نقتل هذه الفئة السيئة أولا »

فأخذتني الدهشة وسألته :

— « ومن تقصد بذلك » ؟

— « الذين بيدهم الحكم فهم لا يعملون إلا لتحقيق مصالحهم الخاصة »

— « ولكن ، ليس من المعقول أن ترغب في قتلهم لمجرد اعتقادك أنهم غير نزيهين »

— « القتل هو الطريقة الوحيدة لتعليمهم النزاهة في الحكم. يجب أن نقتلهم ، وسنقتلهم عند ما يحل الميعاد »

— « وهل تعتقد حقاً أن القتل ما زال في هذا العصر الحديث أحسن وسيلة للتهذيب السياسي » ؟

— « نعم ، ففي الشرق الأدنى لم يزل القتل أحسن واسطة. إنه ليس من المؤكد أن ننفذ القتل في هذه السنة أو التي تليها ولكنك عند ما تعود إلى سورية بعد بضعة أعوام تشهد بعض التبدلات الخطيرة، وربما وجدت بعض الأشخاص الذين تعرفت إليهم هذه المرة قد انتقلوا إلى غير هذا العالم »

لقد تفوه بهذه العبارات القاسية بكل هدوء، مثله في ذلك مثل البط البري الذي لا تؤثر المياه في أجنحته عند ما يغطس في البحيرة . وقد اتضح لي أنه لا يعترف بأية صلة بين الدعوة التي أخذ يبشر بها وبين ما يترتب على تطبيق وسائلها من عواقب مخيفة، فهما في نظره أمران لا ارتباط بينهما .

مما لا شك فيه أن لشخصية هذا الرجل جاذبية قوية يعترف بها أعداؤه أنفسهم . وكانت حقيقته تخفى على الناس بفضل الجاذبية وبفضل طريقته في الكلام عن أهم معتقداته بلهجة عادية كأنه يشرح أمراً بسيطاً . لقد وخط المشيب رأسه ، ومع ذلك فقد كانت حركاته كحركة الفتيان تدل على قوة العضل ومرونته . إني صدقت القصص التي رواها لي عن عمله مع لورنس إذ كانا يشتركان في نسف القطر العثمانية والتمتع بنشوة الحرب والقتل

يتحلى هذا الرجل بكل الصفات الخيالية التي تجعل في الثائر العربي فتنة للزائر الأجنبي ، وخصوصاً إذا كان هذا الزائر جاسوساً بما هو مخبوء وراء ذلك السحر الخارجي . إني لأذكر في هذه المناسبة العبارة التي قالها رجل بريطاني عقب زيارته لمفتي فلسطين: « يا لها من عيون بريئة ! يا له من وجه صبوح جميل ! » لم تكن عيون مضيفي في دمشق بريئة ولكنه كان يتغنى بالآداب الاجتماعية التي لقنته إياها المدنية الغربية ، ومع ذلك فإن تعديه الظاهر الذي يتنافى مع ما يخفيه من غرائز أولية ربما كان عائقاً يؤخر إصلاح الشرق أكثر من الوطنية المتطرفة المصحوبة بالنية الحسنة التي يتصف بها فخري البارودي . ومع أن هذا المضيف قد استنشق الهواء في جامعات أوربية مختلفة وكان يتنقل بين أنائه الفخم بكل ثقة واطمئنان فهو لم يتعلم بعد أن القتل لم يعد هو الوسيلة الوحيدة لتعليم السياسيين الأخلاق . إن أمثال هذا الرجل ليعرقلون المساعي المخلصة التي يبذلها المستنيرون من العرب

لقد أدركت عند ختام زيارتي دمشق السبب الذي جعل سورية تخرج هذا العدد الكبير من قادة السياسة في البلاد العربية، كما أدركت الداعي لاعتبارها ركناً من أركان الحركة العربية الحديثة : إن في العقل السوري لفطنة ، وإن في أكثر رجال السياسة في سورية لمضاء في العزيمة لم ألحظه في مصر؛ وخيل إلي في فلسطين أنه موقت بزوال الظروف الحاضرة . إن جميع الصفات التي تميز الخلق العربي بارزة في شخصية السوريين بكل وضوح وجلاء، ومما لا شك فيه أنهم سيلعبون دوراً رئيسياً في حياة الشرق الأدنى المستقبلة

إن طبيعة السوريين والظروف التي أحاطت بهم جعلت منهم شعباً ثائراً ، ولهذا كان منتظراً أن يعجز الفرنسيون عن إدارة سورية في جو هادئ . غير أنه لا يمكن اعتبار فرنسا وحدها مسؤولة عن تمرد السوريين وما أنتجه من حركات منذ عام ١٩٢٠، كما أنه ليس من المؤكد أن تنتهي المنازعات الداخلية بعد نيل سورية استقلالها التام عام ١٩٣٩ إذ أن السوريين في أشد الحاجة إلى كثير من التهذيب السياسي والاعتياد على ضبط النفس ليصونوا البلاد من التفكك الداخلي . إن أمثال الدكتور الكيالي يجب أن يجدوا ويجتهدوا لكي يجعلوا الصداقة الأبدية مع فرنسا التي يدعو إليها المسيو إده في لبنان بأعلى صوته غير ضرورية لسورية

« يتبع »

علي عبد الرازق